منتهى الأيام

(أناشيد من ملحمة العشق)
. . . (إليها في ذكراها العشرين) . . .

د. ياسين الأيوبي

مقـدّمـة

مَوْعِدٌ وَدَّعني في غَفْلةِ الأيَّامْ
كيف ألقاهُ . .
وأهدابُ الغَسَقْ
شاخصاتٌ لا تنامْ؟ . .

ـ النشيد الأول ـ

ما رعاني في غَياهيب الظلامْ
قَدَراً، كالبارِقِ المِشْنافِ
من عينيكِ،
ما شاءتْ رؤى الأحلامْ . .
كلما استيقظْتُ وافَتْني
طُيوفٌ من أفاويقِ المُدامْ
أو تَدَثَّرْتُ بعُرْيي، واجفاً
فوق هضابِ الوعيِ،
نادتْني عيونُ النرجسِ البَرِّي:
يا ذا الخافقِ المُعْتَلِّ،
إخْلَعْ ما تَدثَّرْتَ . . استجمَّ الآنَ
في مَرْجِ الهُيامْ . . .

ـ النشيد الثاني ـ

خارجاً من بُؤْرةِ الأدرانِ
لوَّحْتِ . .
انْتَضَيْتُ الدربَ . .
أدركتُ انتهاءَ . .
لا يُضاهيهِ ابتداءٌ أو خِتامْ .
مُتَهادي الخُطُواتِ . . انتابَني
مَعْراجُ صَوْتِ القبَّراتْ . .
رشَّ عينيَّ بأكوابِ أغاريدٍ،
تُرىٰ هل سُحِقَ الانسانُ فيَّ،
أندكَّ بُرْجُ الشَّبَقِ الحسيِّ . .
أم صِرْتُ إلى درجةِ حُلْمٍ نبويٍّ
رانَ حولي . .
فأنا محضُ سكونٍ . .
وسَلامْ؟ . .

ـ النشيد الثالث ـ

وتلاقينا . . ضُموراً ونُحولاً
وتعانقنا خيوطاً
مِن شآبيبِ الرخامْ
كَسَرَ النهرُ قيودَ الضفَّتَيْنْ
واشْرأبَّ الموجُ يَسعىٰ لِاجْتِناءِ
النِّيرَيْنْ . .
كلُّ أوصالِ العشيَّاتِ استباحتْ
موطنَ الألَّافِ
فاهتام السكارىٰ
وانتشى العبَّادُ مِنْ خَمْرِ الضلوعِ
المطمئنَّهْ . . .
كلُّ أحلام العذارى انْسَرَبَتْ
للضوءِ
فارتاع اليقينْ:
هل تجلَّىٰ مَلَكُ العِشْقِ
على كلِّ الوجوهْ،
وجَرىٰ الوجدُ أزاهيراً
فأنا صِرْفُ ابتهالٍ وسُجودْ . .

؟ راب القنوطْ؟ . .
رُعْتُ من لألائهِ . . اهتزَّتْ
مداميكُ الهُجُودْ . .
تاه رُشْدي في لظىٰ الرُّشدِ المُصَفَّى،
ونقاءِ الصحوة الكبرىٰ . . .
اعْتَلَيْتُ القِبْلَتَيْنْ

ـ النشيد الرابع ـ

خارجاً من عُنُقِ الآنِ
مُسَجَّىٰ،
داهَمَتْني زَحْمَةُ التاريخِ . .
لا أَفْقَهُ شيئاً عن حُمَيَّايَ الجديدهْ . .
لا أعي من قَدَري شيئاً
سوى أني مُسَجَّىٰ
فوق أسرابِ النهاراتِ المُضيئهْ . .
زاغ فيَّ البَصَرُ الناحلُ حتَّى
صِرْتُ لا أُبصرُ إلَّا الصمتَ . .
لا أَسْمعُ إلَّا الشَّجَنَ الهادرَ مِنْ حولي . .
تَوقَّلْتُ الظهيراتِ التي أَحْنَتْ على
الحُلْمِ الرغيدْ . .
وغَذَتْني سائغَ التحنانِ مَسْكوباً
بأنفاسِ الخلودْ . .
خضَّبَتْني القُبلةُ الكبرىٰ
فسالتْ مِنْ شِفاهي زَفَراتُ
. . المنحنىٰ، أَضْحىٰ مَقيلاً لِلسُّكُونْ . .
وَغَدا صوتي نشيداً

لطواحين الغُروبْ . .
أَوْثَقَتْني خُصْلَةٌ، عند انبثاق الفجرِ،
منحوتاً بترياقِ الزَّهَرْ
جاثياً فوق تراب الخفقةِ الأُولىٰ
بأَعماقِ الدَّهَرْ . .
نازَعَتْني العَتَباتُ القُدُسِيَّهْ . .
يا لَأبعادٍ تُهَجِّيها على وَقْعِ التَّثَنِّي
والتوجُّعْ . .
مَشْرقٌ مُنْسَدِلٌ، ورياحينُ مَشُوقاتُ،
وَتقْسيمٌ تَوَشّىٰ بالجُمَانْ . .
صاغُ منها المَشْهَدُ اللَّوحةَ . .
مَعْقوداً على أطرافها المجْدُ،
آصْطَفِقْ يا وَرَقَ العُلَّيْقِ . .
أَضْحَيْتَ رجيعاً لجراحِ الزيزفونْ . .
ما الرؤىٰ؟ ما الرْغدُ؟
ما الإيناسُ؟
ما كلُّ الأَسَيْماءِ المُضيئهْ؟
إنْ صَحَا رسْمُكِ في البالِ
وماجَ الأَلَقُ المكنونُ
في الأرجاءِ . .
ما يُحْكىٰ عن الياقوتِ والمَرْجانِ والأَصْدافِ . .
إنْ خايَلَ عِطْفٌ،
وسَرىٰ عَرْفٌ لِرِيَّاكِ المَريئهْ؟ . .
ما الغِشَاوَةُ؟ . . ما الكسوفْ؟
ما الجَهامةُ تَعْتَرينا
عند غِربان الحُتُوفْ
إنْ تَخَطَّيْناكِ . . لا ضاءتْ أَساريرٌ
ولا آنسنَا الفوَّاحُ مِن مَرْشوفِ بُرْدَيْنِ
اسْتَجابا لنداءاتِ الضُلوعْ؟ . .

ـ النشيد الخامس ـ

ما لَأقدامِكِ غارتْ في رمالِ العَدَمِ الغاشمِ
لَمْ يَرْأَبْ حنيني المُسْتَجيرْ؟ . .
ما لِأَيَّامٍ غَوالٍ بِنَّ
فاختلَّ المَدَىٰ؟ . .
وذَوىٰ صوتُ الضميرْ؟
باسقاتٍ كُنَّ . .
أَطياباً من الآصالِ والأَسْحارِ . .
ما شاءَ المدىٰ،
والصوتُ،
والعزْفُ الجهيرْ . .

ـ النشيد السادس ـ

منتهى الأَيَّامِ . .
ضَلَّ العُمْرُ تاريخَ وِصالِهْ
نامَ كلُّ الحِسِّ إلَّا عَنْ مَلَالِهْ
فاضتِ الأَقدارُ عن مِقْدارها . .
لم تَعُدْ تَقْتاتُ مِنْ خُبزِ الوَرىٰ .
خبزُها الحِرْمانُ . .
والماء، آختناقٌ في الحناجرْ
هل تناثرْتُ هشيماً في الحقولْ،
وتجرَّعْتُ الغُثاءْ؟

ـ النشيد السابع ـ

منتهى الأَيَّام . .
أيَّانَ اعتصارٌ شَفَّ . .
حتَّى . . الإنطفاءْ؟
وُرشَافٌ سَحَّ حتَّى الإنعتاقْ؟ . .
مَنْ تُرىٰ كنتُ، إذا الحَوْرُ اصطفاني
والصنوبرْ،
لِصلاةٍ . .
بين معسولِ اللَّمىٰ
وَبخُورِ المرمرِ العاجيِّ،
يَصَّاعَدُ،
توشيحاً مُكَوْفَرْ؟ . .
مَنْ تُرىٰ كنتُ لو الأَسْرارُ فَتَّحْنَ عُراها،
قَفَزَتْ من قَفَصِ الصدرِ
يُعانِقْنَ المُقَلْ؟ . .
مَنْ . . لوِ الآهاتُ حَرَّقْنَ السُّرُرْ
وَمضَتْ للأكبد الحرّىٰ . .
تُعَرِّسْ
في العَراءْ؟ . .
مَنْ أنا إذْ ذاكَ . . يَطْويني
دُوَارُ الوَجَعِ الأكبرِ
واللُّقيا السَّرابيَّهْ؟ . . .
يَمْحي العَهْدُ القديمْ . .
وَتُزِفُ العامريَّهْ
لفتاها العامريّ . .
وَيَفيضُ الغيث في وادي بَغيضٍ
عن كُرومٍ،
وأَماسٍ . .
أين منها مرتجى الأبرار في جَنَّاتِ عِلِّيِّنْ؟؟
حِقَبٌ من حُرَقِ البَوْحِ
وآبارِ التنهُّدْ
خَلْفَ مرمى العَدمِ المُكْتَظِّ بالأَشباحْ
تَتَلاشىٰ . .
لو عَبَرْتِ الأُفْقَ . .
خَيْطاً من دخان . .

ـ النشيد الثامن ـ

منتهى الأَيَّامِ
حَرِّرْ ذاتَكَ المُثْلىٰ
لِتَحيا في شَرايينِ الحُروفِ الصُّفْرِ،
تُحْيي يابسَ الأَشعارِ
ممَّا قيلَ في ليلى وَميٍّ . .
وتراءىٰ في البيادي من تَعِلَّاتِ اللقاءْ . .
عُدْ لِيومٍ واحد، مُسْتَأْنياً،
مُعْتَرِشاً صخْرةَ حُبٍّ لم تَزَلْ تَرعىٰ
خريرَ الأَوديهْ . .
وأَحاديثاً . . وأَسماراً
تُروِّي مُهْجَةَ الشَّوْكِ
وأَبكارَ الضياءْ . .
مَرِّغِ الأَيَّامِ مِنْ بَعْدِكَ . .
جَرِّعْها صُنوفَ الإندِحَارْ

علَّها تُدْرِكُ أَنَّ العُمْرَ كَرٌّ وفِرارْ..
خُطوةٌ في العَتْمِ..
أُخرىٰ في النهارْ..
وشِراعٌ يعتلي الإعصارَ حيناً،
ثمّ يَسْجُو..
زُرْقَةٌ قَمراءُ.. للوعدِ انْتِظارْ..

ـ النشيد التاسع ـ

منتهى الأيّامِ..
جيئي مرَّةً واحدةً:
أَصْرُرْكِ في عُنقي..
فلا أَنْطِقُ عَن هَذْرٍ
وأُخْفي الكلماتْ
أَجتبيها لِزَفيرِ الوَصْلِ،
تَبْلىٰ فوق هامِ الصفحاتْ..
أَحنقُ الأوتارَ إن باحتْ
بِهَمْسٍ واجفٍ عنكِ..
وأَستَعدي الصفاتْ..
أيُّما قولٍ بليغٍ أو بديعْ،
لا يُساوي صُورةَ الإعجازِ
في أفياءِ وجهِكْ..
لغةٌ صامتةٌ، مسطورةٌ
بالجُلَّنارْ..
عُلِّقَتْ عند مُحَيَّاها مَفاتيحُ الكلامْ..
هاتِ حدِّث كيفما شئْتَ..
آمْتَشِقْ أقلامَ كلِّ البُلَغاءْ
لن يَفي الحِبْرُ..
ولن تَرْقىٰ إلى باحتها..
شَرُفَةٌ عاليةٌ من كبرياءْ
وسماءٌ طَرَّزَتْها الجِنُّ
من قَبْلِ السماءْ...

ـ النشيد العاشر ـ

مُنتهى السِّدرةِ، وافانا الغُبَارْ
غارَ نَهْرِ الخلدِ مِن تَحتِكِ، والأَقْدارُ
ضيَّعْنَ المواقيتَ..
فأَيْنَ الوَجْهُ والإبحارْ؟..
أَوْقِدي زَيتَ اخضرارِكْ
قَبْلَ أن يأْتي التَّتارْ
يزرعونَ الموتَ فوق الموتِ،
أَهْوي بالنُّضارْ..
يَبِستْ أَقلامُنا في الوحْلِ
والظلُّ المديدُ انجابَ..
والشمسُ سِياطٌ، والضَّبابْ
يزرع الأنفاس بالشَّوكِ..
... أَلاَ انْهَلِّي..
وَجُودي بالرُّضابْ..
إمْرَعي.. فالحَجَر الصَّلْدُ انحنى،
بَعْدَ استواءٍ وتَقاطُعْ
إمْنَحي الأَطفالَ دَفْقاً
من نجيعِ الأملِ الناصِلِ
يَسْمُونَ إلى البَهْجَةِ..
تَنْدَىٰ العَينْ
تَغْرَوْرِقُ بالعَذْبِ.. الفُراتْ..

ـ النشيد الحادي عشر ـ

غَمَرَتْني العَبَراتْ
أَطفأَتْني الذكرياتْ..
مُنتهىٰ الحُبِّ..
أَقيليني..
أَمْسَيْتُ ركاماً من هواجسْ
خَيَّمَتْ حولي العناكبْ
دَورةٌ أو دورتانْ
وَخُيوطٌ تُحْكِمُ الطَّوْقَ..
إذَنْ لن يَقْرَأَ الرُّكْبانُ
سِفْرَ الوَجَعِ المجبول بالأَشْجانْ..
وأساطيرَ الذهولْ
نَسَجَتْها جَوقَةُ الأيّامِ
تَمضي.. والفُصولْ..

ـ النشيد الثاني عشر ـ

منتهايَ.. الآنَ..
يَنْسَلُّ بياضٌ من سوادِ العُمْرِ،
إنْ غرَّدَ لحنٌ في السفوحْ..
أو سَوادٌ من بياضِ الغابرِ المسفوحْ..
كم ذَوىٰ الخُرْجُ وأَيْنَعْ،
وانثنى الغُصْنُ.. وهَجَّعْ!؟..

ـ النشيد الثالث عشر ـ

مبتدىٰ الأيّـام
مَنْ لي بِسراجٍ يَنْزَحُ العَتْمَ المُذَرَّىٰ
في شِعابِ الحِسِّ؟..
أَوْليني مِداداً يُوْلِجُ الخَفْقَةَ
بالحَرْفِ..
يُدَوِّي الصمتُ في عُمْقِ الصدىٰ..
هَيِّئي لي خَلْجةً..
أَنْداحُ في مَبْسمها..
زَمْزَمَ الرَّجْعُ الأخيرْ..
وتمطَّىٰ القابعُ المَطْويُّ
في قاعِ القبورْ..
ما لِأَطرافي اسْتَحَمَّتْ
بعبيرِ الشُّهَداءْ؟

ـ النشيد الرابع عشر ـ

منتهىٰ...!
هل بدأتْ خاتِمةُ
التطوافِ في الهيكلِ؟..
إني بانتظارِ الكأْسِ..
فَلْتُرْشَفْ ثواني الإنتِشاءْ!!